تاريخ لبنان

لماذا نبحث في تاريخ لبنان

لم تكن دراسة تاريخ لبنان حتى اليوم دراسة علمية موضوعية لدى معظم المؤرخين الذين تناولوا هذا التاريخ من وجهات نظر مختلفة لاختلاف العقائد الدينية التي ينتمون اليها، او التيارات السياسية التي يعتنقونها، اضافة الى غموض مراحل عديدة من هذا التاريخ لتجاهل بعض المصادر الوثائق العائدة للتاريخ القديم بعامة والوسيط بخاصة.

أما التاريخ الحديث فإن معظم وثائقه منتشر في محفوظات الدول الأوروبية والمشرقية، أصاب التلف قسما منه أحيانا، أو غيّبه الزمن لعدم الاهتمام به أحيانا أخرى، حتى ليجد الدارس نفسه ينقّب ويبحث في المجهول كلما عزم على كشف بعض غوامض هذا التاريخ.

وأما التاريخ اللبناني المعاصر فلا تزال مصادره مغلقة على الباحثين لحداثتها، وعدم سماح وزارات الخارجية بالاطلاع على محفوظاتها في أيامنا الحاضرة.

ونحن لا ندّعي اليوم قدرتنا على عرض مراحل التاريخ اللبناني عرضا واضحا لا ثغرة فيه ولا نقص، ولكننا نحاول، بما توافر لدينا من مراجع ووثائق مخطوطة أو منشورة، أن نلقي الضوء على تاريخنا، محللين الأسباب والظواهر مستفيدين من أخطاء الماضي، مظهرين قدر الإمكان نقاط الخلل في ممارسات الطوائف أو الجماعات أو الحكام، علنا نتبين الطريق الواجب سلوكه في ممارستنا السياسية للحفاظ على حريتنا وأمننا وحضارتنا في مجتمعنا المسيحي الذي كان ولا يزال مهدد الأركان والجوانب من الداخل والخارج.

تاريخ لبنان

إن عمر التاريخ اللبناني من عمر الإنسان على هذه الأرض، فمنذ خمسة آلاف سنة كانت مناطق لبنان مأهولة بمجموعات سكانية تمارس حياتها بما توافر لديها من امكانيات مادية ومعنوية، محافظة بذلك على ديمومتها وحريتها، بخاصة في المناطق الجبلية، بحيث أظهرت التنقيبات والحفريات آثار هذه المجموعات من وحدات سكنية ومعابد وهياكل دينية.

أما السواحل اللبنانية فكانت أكثر ازدهارا من الجبال لقربها من البحر واتصالها بغيرها من الشعوب سكان البحر المتوسط، فأعطت الحضارة مبادىء الثقافة والصناعة، إلا أن سكانها فقد كانوا يتجمعون في مدن – دول كجبيل وبيروت وصيدا وطرابلس قلما عرفت التضامن او الوحدة، فكانت عرضة للغزوات الخارجية، استبسلت في مقاومتها احيانا، وتخاذلت احيانا أخرى مما ترك في هذه البلاد سمات الاختلاط السكاني إذ خلّف الغزاة في أكثر الأحيان بعض الأفراد أو القبائل التي اختلطت بسكان البلاد الأصليين وكوّنوا الشعب اللبناني.

انتشار المسيحية:

ظهرت المسيحية في الناصرة إحدى نواحي الجليل وكانت آنذاك خاضعة للحكم الروماني منذ العام 63 ق.م. ثم راحت الديانة الجديدة تنتشر لتعمّ معظم أنحاء الامبراطورية في خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين.

وعرف المسيحيون على مرّ العصور ألوانا شتى من الاضطهاد ففي القرن الأول كان اعتناق المسيحية كافيا للحكم بالموت عند الرومان، واتسع نطاق الاضطهاد في منتصف القرن الثالث الميلادي على أيام الامبراطور ديسيوس (249 – 251)، أما الامبراطور ديوكليانوس (303) فقد عزل الضباط المسيحيين من الجيش الروماني وطرد الموظفين المسيحيين من وظائفهم، كما أمر بتدمير الكنائس وإحراق الكتب المقدسة وسجن الكهنة المسيحيين وارغامهم على السجود لتمثال الامبراطور. ولم يصمد جميع المسيحيين أمام هذا الاضطهاد بل فضل البعض منهم الارتداد عن المسيحية ليفوزوا بأموالهم وأرواحهم ومناصبهم.

وفي عام 310م. أصدر الامبراطور غاليريوس قانون التسامح العام، واقتدى به فيما بعد الامبراطور قسطنطين بإصداره عام 313م. قرار التسامح الديني.

تنظيم الكنيسة:

تمثلت الكنيسة بالتنظيم الروماني الامبراطوري، فنظمت شؤونها على غرار النموذج الروماني، فكانت المدينة مركزا أسقفيا، وجُمعت عدة مدن تحت سلطة رئيس أساقفة او متروبوليت. وفي هام 451م. عُقد المجمع الخلقيدوني في آسيا الصغرى وأقر سلطة رؤساء أساقفة المدن الخمس الكبرى وهي روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية وأورشليم، وعُرف كل واحد من هؤلاء بإسم بطريرك.

وكانت سلطة بطريرك انطاكية تشمل معظم البلاد الممتدة من جبال طوروس شمالا إلى الجليل وغور الأردن جنوبا، وكان لبنان من ضمن هذه البطريركية.

الصراع العقائدي في المسيحية:

في أوائل القرن الرابع الميلادي قام آريوس اسقف الاسكندرية بنشر بدعة جديدة عُزفت بالآريوسية وتتلخص بأن السيد المسيح ليس إلها كالآب بل أن مشيئته فقط إلاهية، لكن مجمع نيقية (325م.) حرّم هذه العقيدة ووضع قانون الايمان المعروف في كنائسنا حتى يومنا هذا. لكن العقيدة الاريوسية ظلت تنمو في أماكن متعددة طيلة القرن الرابع الميلادي.

أما المشكلة الثانية التي واجهت الكنيسة فهي قضية تجسد المسيح إذ كيف يكون السيد المسيح إلها وإنسانا في الوقت نفسه وما هي علاقة الطبيعة البشرية بالطبيعة الانسانية؟ فقام نسطوريوس يؤكد أن لا وحدة بين طبيعتي المسيح وان الذي صُلب هو الانسان وليس الاله.

وعُقد مجمع مسكوني عام 431م. في أفسس حرّم تعاليم نسطوريوس ومنعها في أراضي الامبراطورية فما كان من دعاتها إلا أن انتقلوا إلى بلاد الفرس ونشروا تعاليمهم هناك وأسسوا كنيسة جديدة.

حاول المجمع الخلقيدوني أن يقرّب وجهات النظر فحدد وحدة المسيح في طبيعتين متحدتين في أقنوم واحد، إلا أن بعض اللاهوتيين رأى أن التفسير يرتكز على النسطورية، واستمر الخلاف أكثر من قرن، تدخل فيه الأباطرة وزوجاتهم، حيث برز يعقوب البرادعي أسقف الرها في القرن السادس، ونظم جماعات القائلين بالطبيعة الواحدة متحديا بذلك الامبراطور يوستنيانوس في حين كانت الامبراطورة تيودورا تشجع الأسقف يعقوب البرادعي على جمع شمل القائلين بالطبيعة الواحدة فعرفوا باليعاقبة.

موقف القديس مارون من البدع:

كان القديس مارون من أشد المقاومين لعقيدة الطبيعة الواحدة، وبعد المجمع الخلقيدوني انقسم المسيحيون بين خلقيدوني مؤمن بالطبيعتين وبين قائل بالطبيعة الواحدة، وقد وقف اتباع القديس إلى جانب تعاليم المجمع الخلقيدوني وقالوا بالطبيعتين.

أدى الخلاف بين اتباع الطبيعة الواحدة والطبيعتين إلى مجازر عنيفة بين الفريقين فقتل في دير القديس مارون قرب العاصي حوالي 350 راهبا، فيما قامت الدولة البيزنطية بقتل حوالي 3600 راهب من اتباع الطبيعة الواحدة في دير ماري في منطقة افاميا.

وكانت هذه المجازر التي ارتكبها المسيحيون بحق إخوانهم المسيحيين في هذه الحقبة أول إسفين دقّ في جسد المسيح وتعاليمه بحيث تطور فيما بعد وأدى إلى انشقاقات متعددة لا تزال آثارها حتى يومنا هذا.

المردة:

يذكر المؤرخون في كتاباتهم وجود قوم في لبنان يعرفون باسم المردة، وقال غيرهم بأنهم جراجمة، وعلى الرغم من هذا الاختلاف في التسمية فالارجح انهم قسم من موارنة لبنان عرّفتهم موسوعة (Larousse) بأنهم رجال حرب، شديدو البأس، مرهوبو الجانب، عاشوا في لبنان ودافعوا عنه، وجعلوه حصنا منيعا، حتى عُرف عنهم بأنهم السد النحاسي.

ومهما يكن من أصل الجراجمة أو المردة أو الموارنة فالثابت أنهم ظهروا وانتشروا في لبنان، تاريخهم هو تاريخ لبنان وحياتهم ملتصقة بالارض اللبنانية، وعنادهم في الدفاع عنها قُدّ من صخور جباله.

يقول الأب هنري لامنس في كتابه "تسريح الأبصار" أن المردة والموارنة وإن كانوا من أصول مختلفة فإنهم امتزجوا في لبنان امتزاج الماء بالخمر.

وفي القرن الحادي عشر وعلى أثر الاضطهادات التي واجهها الموارنة في لبنان على أيدي السلاجقة المسلمين نزحت جالية مارونية إلى قبرص، وأخرى إلى

رودس، وثالثة إلى مالطة حيث أقاموا هناك وأسسوا كنائسهم وامتزجوا بسكان البلاد الأصليين، لكنهم ما زالوا يخضعون للبطريركية المارونية في لبنان.

الغزو الاسلامي:

بدأت غزوات العرب المسلمين للبنان وبلاد المشرق في النصف الأول للقرن السابع الميلادي، وقد سقطت المدن والحواجزبأيدي الغزاة لأسباب سياسية ودينية واقتصادية، أما السواحل اللبنانية ومناطق البقاع فقد سقطت بيسر وسهولة ظنا من سكان هذه المناطق أن الغزاة الجدد سيخلصونهم من ظلم الأباطرة الرومان، إضافة إلى أن الدعوة الإسلامية كانت تدعو إلى وحدانية الله فظن البعض أنها بدعة مسيحية تشبه دعوة القائلين بالطبيعة الواحدة، فاستقبلهم سكان السواحل دون مقاومة تذكر. أما المناطق الجبلية فقد ظلت بمنأى عن هذه الفتوحات وبعيدة عن التأثير الإسلامي عليها، ونعمت بالحرية السياسية والدينية لقرون عديدة.

الانسحاب الشيعي أمام الغزو الإسلامي:

على الرغم من أن كثيرا من السكان في السواحل اللبنانية استقبل الفاتحين العرب ظنا منهم أنهم سيتخلصون من الصراعات العقائدية بين أصحاب الطبيعة الواحدة والطبيعتين فإن جماعات كثيرة من أصحاب الطبيعتين أعداء اليعاقبة آثرت الانسحاب مع البيزنطيين اعتقادا منها أن الامبراطورية البيزنطية لن تترك البلاد للغزاة الجدد، ولذلك نزحت جماعات كثيرة نحو الشمال، إذ استدعى هرقل قبائل غسان ولخم وجذام وغيرها، وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد النازحين بلغ ثلاثين ألفا. وقد سعى البيزنطيون بهذا النزوح إلى إفقار البلاد من جهة وليتمكنوا بعد ذلك من إعادة فتحها باستغلال أهاليها الأصليين، كما ساعد هذا الإجلاء سياسة تفريغ البلاد التي اتبعها المسلمون إبعاد خطر السكان الذين يعانون البيزنطيين، وقد عمل المسلمون بعد ذلك على استقدام قبائل إسلامية إلى السواحل اللبنانية، وعلى بناء أسطول حربي عربي كان من نتائجه أن أصبحت السواحل اللبنانية منيعة أمام غارات الأسطول البيزنطي مما شجع المسلمين على السكن في هذه السواحل.

القبائل التي استوطنت لبنان بعد الغزو الاسلامي:

قبل البحث في القبائل التي استوطنت لبنان بعد الغزو الإسلامي، لا بد من التعرف على سكان لبنان قبل هذا الغزو. ويذكر المؤرخون أن لبنان كان مأهولا بمزيج من الشعوب الكنعانية، الفينيقية، الآرامية وكانوا يعرفون باسم السريان، يضاف إليهم بعض المجموعات الصغيرة من الفرس والايطوريين الذين كانوا في عنجر، وقبيلة عاملة في الجنوب فاعطت اسمها إلى جبل عامل.

أما الحقبة التالية للغزو الإسلامي فإنها تظهر تنوع السكان وبروز الكيانات السياسية والاقطاعية وتمركز المجموعات الدينية والمذهبية، وهي في أساس فهم تكوين لبنان الحالي، وأي إهمال في دراستها يؤدي إلى الضياع في فهم تاريخ لبنان الحديث والمعاصر.

بدأ الغزاة المسلمون بعد احتلالهم الشواطىء اللبنانية باستقدام قبائل عربية وإسكانها في لبنان وعلى فترات زمنية مختلفة، كانت أولاها قبيلة الأمراء اللمعيون الذين أتوا مع الفتح الإسلامي وسكنوا كفرسلوان. ثم الارسلانيون عام 756م. فالشهابيون والتلحوقيون والمعنيون وآل نكد في أواسط القرن الثاني عشر وسكنوا مناطق وادي التيم وساحل بيروت والشوف. وأتى التنوخيون إلى الشوف في أوائل القرن الرابع عشر، ولحقهم آل عماد وتوطنوا في بعقلين ثم في الباروك أما مشايخ الحمادية المتاولة فقد أتوا عام 1448م. وتوطنوا بعلبك والهرمل، وكان آخر القادمين آل جنبلاط عام 1630م. فتوطنوا بيروت ثم الشوف فبعذران.

الشروط العُمرية:

لم يدرك مسيحيو لبنان خطر الغزو الإسلامي لبلادهم وظنوها عملية استبدال بالحكم الفارسي والبيزنطي الحكم العربي، إلا أن الظلم الذي لحق بهم جعلهم يدركون الخطأ الذي وقعوا فيه بعد أن فرض المسلمون سياسة خاصة عليهم ووضعوا شروطا قاسية عرفت بالشروط العُمرية.

نسبت الشروط العُمرية خطأ إلى عمر بن عبد العزيز، في حين هي على الأرجح للخليفة عمر بن الخطاب ولكنها لم تنسب إليه صراحة لأن المؤرخين من المسلمين أرادوا بذلك إخفاء صيغة التسامح الديني للخليفة عمر بن الخطاب، وقد ظلت هذه الشروط تُفرض على المسيحيين أو أهل الذمّة عدة قرون، وحتى نهاية القرن التاسع عشر، مع إضافة بعض الشروط أو حذف البعض الآخر، بحسب الأوضاع السياسية والدينية في الحكم الإسلامي.

نصت هذه الشروط على أهل الذمّة "أن لا يبنوا أديرة أو كنائس أو صوامع، أن لا يجددوا ما تهدم منها، وأن يقبلوا أحد المسلمين إذا مرّ عليهم ثلاثة أيام بلياليها وأن يقدموا له ما يلزمه.

أن لا يقبلوا في منازلهم أو كنائسهم جاسوسا، وأن لا يتشبهوا بملابس المسلمين وأن لا يمنعوا من يختار منهم الدخول في دين الإسلام، وأن ينهضوا للمسلم إذا دخل عليهم، وأن لا يعلموا أولادهم القرآن، وأن لا يتكلموا بكلامهم، ولا يكتبوا بكتابتهم، ولا يركبوا دابة مسروجة، ولا ينقشوا حجارة خواتمهم باللغة العربية، وأن لا يظهروا صلبانهم ولا كتبهم، وأن لا يقرعوا نواقيسهم إلا قرعا خفيفا، وأن لا يرفعوا أصواتهم في صلاتهم داخل كنائسهم وأمام موتاهم وأن لا يحملوا سيفا أو سلاحا..."

وعندما جُدد إعلان هذه الشروط في العام 1807 من قبل والي الشام يوسف كنج ورد في آخرها ما نصه:

"... وهذه الشروط وضعها قديما مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقبلوا به النصارى والمسلمين والآن قد أصدر هذا الأمر سعادة افتدينا ولي النعم كنج يوسف باشا على جميع النصارى واليهود ويكون لبسهم الأسود والأزرق والخمري والأحمر رجال ونساء، ولا يلبسون صرماية في أرجلهم..."

الصدام بين الموارنة والإسلام:

يصف البلاذرى أول صدام بين الموارنة والإسلام عندما فتح أبو عبيدة بن الجرّاح مدينة انطاكية سنة 638 فيقول أن أبا عبيدة عجز عن غزو الجرجومة معقل الموارنة ولم يجد بدا من عقد معاهدة صلح مع الموارنة لمناعة مناطقهم وبأس رجالهم وتلاحم صفوفهم. وقد نصت هذه المعاهدة على:

1- التعاون بين الجراجمة والمسلمين.
2- عدم فرض الجزية على الجراجمة.
3- وقوف الجراجمة والجيوش الإسلامية على قدم المساواة في أثناء الحروب.

وهذه المعاهدة فريدة من نوعها كونها لم تفرض الجزية على الجراجمة غير المسلمين وقد جرت المفاوضة مع الجرجمة بصفتهم شعب يتمسك بحريته ودينه وليس كشعب مغلوب على أمره.

وفي أيام معاوية نظم الجراجمة قواهم العسكرية في شمال سوريا وجبال لبنان وقاموا بثورة مسلحة في المناطق الجبلية بين جبال اللكام ومدينة القدس، وصاروا يشنون الغارة تلو الأخرى على الدولة الأموية، وقد سعى الأمويون إلى وقف هذا الغارات بمعاهدة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية والجراجمة والموارنة، يؤدي المسلمون بموجبها للبيزنطيين كل سنة 3 آلاف قطعة ذهبية و800 أسير وجوادا.

والأرجح أن ثورة الجراجمة كانت بدعم من الدولة البيزنطية، فأتت هذه المعاهدة لصالحها.

أما في أيام عبد الملك فقد أبرمت معاهدة جديدة بين المسلمين والجراجمة سنة 685م. أدة المسلمون بموجبها مالا للجراجمة بلغ ألف دينار كل يوم جمعة.

وهكذا نجد أن الجراجمة الموارنة بدأوا ينظمون صفوفهم لمصلحتهم غير معتمدين على الدولة البيزنطية فحافظوا بذلك على أوطانهم ومنعوا المسلمين من اجتياحها بقوتهم وسداد رأيهم وتعاضدهم.

انشقاق الموارنة عن الكرسي الانطاكي:

عندما عُقد المجمع القسطنطيني عام 680م. قام بطريرك انطاكية المقيم في القسطنطينية آنذاك، يدافع عن المشيئة الواحدة في المسيح، مماشاة لرأي الامبراطور يوستنيانوس الثاني، لكن المجمع المقدس كفّر هذا المذهب وأقال مكاريوس وعيّن مكانه البطريرك ثاوفانوس، فتمنع رهبان دير مار مارون عن الاعتراف بالبطريرك الجديد المفروض من قبل الروم، واعتبروا المركز خاليا ونصبوا رئيسهم يوحنا مارون بطريركيا مارونيا على انطاكية وسائر المشرق، فحصل الانشقاق بين الموارنة والكنيسة الملكية في حوالي العام 681م.

الاختلاف المذهبي بين يوستنيانوس والموارنة:

استاء يوستنيانوس الثاني من عدم موافقة الموارنة للمعتقد الجديد الذي نادى به بالمشيئة الواحدة في السيد المسيح فأرسل قوة لمطاردة الموارنة الذين أعلنوا معارضتهم لمعتقد الامبراطور، وكان على رأس هذه القوة قائدان بيزنطيان هما موربق ومورقان، وذلك للقبض على البكريرك يوحنا مارون الذي كان يقيم في دير يوحنا كفرحي بعد هربه من وادي العاصي سنة 685م. بعدما قتل رهبانه وخُرّب ديره.

أستطاع الموارنة التغلب على القوة البيزنطية فقتل القائدان ودفن الأول في أميون وشيدت على قبره كنيسة بيزنطية، والواضح أن الذين شيدوا الكنيسة هم من الروم الملكيين ولا تزال المنطقة مأهولة بالارثوذوكس حتى يومنا هذا.

أما الذي كان قائد الموارنة في هذه المعركة فهو المقدم ابراهين ابن أخت البطريرك يوحنا مارون.

أما في أيام الوليد بن عبدالله فقد عُقدت معاهدة جديدة سنة 707م. بين المسلمين والجراجمة، نصّت على حرية الجراجمة في الإقامة حيث يشاؤون، وأن يؤخذ منهم ما يؤخذ من المسلمين، فيدفع كل شخص منهم ثمانية دنانير، وتقدم كل عائلة مدين من القمح وقسطين من الزيت، وأن لا يكره أحد منهم على ترك النصرانية، وأن يلبسوا لباس المسلمين. لم تعتبر هذه المعاهدة المسيحيين الجراجمة أهل ذمّة، بل عاملتهم معاملة الند للند مع المسلمين.

وهكذا حاول الموارنة منذ القرن السابع إنشاء وطنهم في جبال لبنان المنيعة، مستقلا عن الدولة الإسلامية، تحفظ حقوقه معاهدات مع الحلفاء أو الأعداء.

وكانت حدود هذا الوطن تنبسط وتتقلص تبعا للأحوال السياسية، إلا أنهم ظلوا يحافظون دائما على الجبال اللبنانية الشمالية كمعقل حصين لهم في أيام المحن والحروب.

أول ثورة مسيحية:

في عام 753م. حدثت ثورة في لبنان قام بها المقدم الياس من بسكنتا إذ أغار على البقاع ونهب قراه، إلا أن والي الشام أوقع بالمقدم الياس وقتله في قرية المرج حيث دفنوه هناك وعُرفت المنطقة باسم قبر الياس ثم حُرّفت وأصبحت قب الياس.

تولى القيادة من بعده ابن أخته النقدم سمعان حيث هاجم العساكر العباسية في الشوير وانتصر عليها (نقلا عن خطط الشام).

فيما يورد ابن القلاعي ان هذه المعركة جرت بقيادة المقدم يوحنا سنة 689 على عهد الأمويين حيث قتل يوحنا وتزعم ابن أخته سمعان من بعده إلا أنه انهزم أيضا أمام عسكر الشام.

ومهما يكن من أمر الروايتين وتاريخ وقوعهما فإن الاضطهاد الديني على ما يبدو كان سبب هذه الثورة المسيحية على البقاع.

وتعتبر هذه الثورة أول ثورة مسيحية ضد الحكم الاسلامي في الشرق.

ثورة بنداو:

في عام 759 تقدم أهالي جبة المنيطرة بشكوى إلى والي الشام صالح بين علي العباسي ضد عامل بعلبك بشأن الضرائب التي حاول فرضها على أملاكهم، فلم يلقوا ردا مشجعا، وصادف احتلال بعض عسكر الروم مرفأ طرابلس فتشجع أهالي جبة المنيطرة وأغاروا على عامل بعلبك بقيادة شاب منهم اسمه بندار، جعلوه ملكا عليهم، ويقول ابن عساكر إن بندار لبس التاج ورفع راية الصليب وصار يُغير على قرى البقاع نهبا وقتلا وتوعد عامل بعلبك، فاستدرجه هذا إلى البقاع وأوقع به الهزيمة، ثم لحق بجماعته إلى المنيطرة، وأخذها، ففر بندار وبعض جماعته إلى طرابلس.

ثم سعى العباسيون إلى توطين بعض الجاليات الإسلامية في المناطق الجبلية بين الساحل والداخل ابتدأ من زرعون وترشيش إلى مناطق كسروان والفتوح.

وتعتبر ثورة بندار ثاني ثورة مسيحية ضد الدولة الإسلامية وذلك في عهد المنصور العباسي.

وبسبب المجازر التي ارتكبها المسلمون ضد المسيحيين في جبه المنيطرة كتب الإمام الأوزاعي إلى والي الشام صالح بن علي العباسي قائلا: "... وقد كان من أجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج خروجه ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم...".

ويستفاد من كتابات المؤرخين أن هذه الثورة لم تكن هجومية وليست بتحريض من البيزنطيين، ولم تكن شاملة كل المسيحيين، وبأنها كانت بدافع من الظلم الاقتصادي الذي وقع على المسيحيين في جبل لبنان، كما يستنتج بأن انكسار المسيحيين حصل بسبب خلافاتهم وتقاعس البعض منهم عن القتال والدفاع عن الأرض.

استقدام القبائل العربية إلى لبنان:

لقد نبهت، ثورة المقدم الياس سنة 753م. وبعدها ثورة بندار سنة 759م. أنظار العباسيين إلى نقطة الضعف في السيطرة على جبل لبنان، وأبرزت وجود جماعات مسيحية تتمتع بالصلابة والشجاعة والعزم، قادرة على القتال وعلى التحالف مع الدولة البيزنطية بسبب رابط الدين، فعمد أبو جعفر المنصور فور الانتهاء من إخماد ثورة المنيطرة إلى استقدام قبائل عربية إسلامية ووطّنها في لبنان.

فكان إن انتقلت قبيلة التنوخيين سنة 763م. وسكنت لبنان. ويروي طنوس الشدياق في كتابه أخبار الأعيان في جبل لبنان أن الأمير منذر بن مالك الارسلاني التنوخي أتى لبنان وتفرّق مع عشيرته في جبال بيروت بالقرب من شملان وبيت مري والمنصورية وسن الفيل وعبيه، وذلك للوقوف بوجه الموارنة وتملّك بلادهم.

وهكذا بدأت تتكون في لبنان أول إمارة عربية إسلامية، إذ أقر المهدي بن منصور العباسي الأخويين منذر وارسلان التنوخيين على ولايتهما في الجبال المشرفة على بيروت وعلى السواحل الجنوبية.

وتابع العباسيون تشجيع الاستيطان في لبنان، فأرسل هارون الرشيد منشورا إلى أمير الثغور الشامية وإلى باقي عمال الشام أن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه لتشتد قوة أمرائه على أهل العاصمة كسروان، وذلك بعد المعركة التي وقعت بين موارنة كسروان والأمير مسعود التنوخي أمير سن الفيل، إذ اضطر الأمير مسعود إلى ترك سن الفيل والتوجه نحو الشويفات والإقامة فيها سنة 769م.

<u>الاضطهادات التي واجهت المسيحيين في الشرق:</u>

ظل الجبل اللبناني في منأى عن الصراع المذهبي والسياسي في أيام الأخشيديين والحمدانيين بالرغم من محاولات الدولة البيزنطية استعادة سيطرتها على أقسام من سوريا الشمالية، إلا أن المضايقات والاضطهادات ظلت تلاحق المسيحيين في البلاد الإسلامية كافة ففي سنة 912م. أحرقت كنيسة القيامة في الإسكندرية وقتل رهبان الأديرة في تلك النواحي. وفي سنة 924م. أحرق المسلمون كنيسة السيدة بدمشق ونهبوها كما خربوا كنائس النساطرة واليعاقبة.

وفي سنة 936م. ثار المسلمون في القدس وأحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها، كما ثاروا في عسقلان، وهدموا كنيسة مريم الخضراء ونهبوا ما فيها، وقتلوا رهبان دير مار سمعان، واستولى سيف الدولة على القدس وأعمل السيف في أهلها النصارى.

وعند ظهور الدولة الفاطمية أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة وبعض الكنائس الأخرى، وفرض على المسيحيين واليهود قيودا شديدة سنة 1009م. اعتبرها بعض المؤرخين من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية.

وفي سنة 1012 أمر الحاكم بأمر الله بإلقاء القبض على زخريس بطريرك اليعاقبة ورميه للسباع، كما ألزم النصارى بشد الزنار على الوسط، ومنعهم من تطواف الشعانين وعيد الصليب وعيد الغطاس، وهدم الكنائس والأديرة، وكتب إلى الولاة بتمكين المسلمين من هدم الكنائس في مصر والشام، مما دفع بالمسيحيين إلى الهجرة نحو بلاد الروم أو إلى اعتناق الإسلام. وفي سنة 1262 أمر الملك الظاهر بهدم كنيسة الناصرة فهُدمت.

وكان من تشدد الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمّة واليهود إن دعا إلى مذهب التوحيد أو المذهب الدرزي ليكون خلاصة الأديان والمذاهب على حد زعمه.

<u>وصف ابن خلدون للمسلمين العرب:</u>

بلغ تعسّف المسلمين وهمجيتهم حدا جعل ابن خلدون المسلم يكتب في مقدمته: "... إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية، باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران. وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما في

أيدي الناس، وإن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس لهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع انتهبوه، فإذا تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك، بطلت السياسية في حفظ أموال الناس وخرب العمران...".

"... وأيضا فهم متنافسون في الرياسة، وقلّ أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل على كره، من أجل الحياء، فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقص..."

موارنة لبنان في أيام الصليبيين:

لم يكن هدف الحروب الصليبية تأمين طرق الحج إلى الأماكن المقدسة المسيحية فقط، بل كانت لها أهداف سياسية إذ أقامت إمارات افرنجية في طرابلس والقدس ونصّبت بطاركة لاتين على انطاكية والقدس، فأخذ موارنة القرى القريبة من طرابلس وجبيل والبترون يتقربون من الافرنج وبدأوا يظهرون ميلا إلى الدخول في طاعة الحبر الأعظم، فيما ظل موارنة الجبال العالية على حذر من الافرنج.

وتفيد المصادر التاريخية أن البطريرك يوسف الجرجي الذي كان مقيما في دير سيدة يانوح في حدث الجبة أنه أقام اتصالات مع البابا باسكال الثاني عام 1099م. حيث أرسل إليه البابا تاجا وعصا.

كما تفيد هذه المصادر أو رؤساء الطائفة المارونية التقوا قاصد البابا اينوسان الثاني في طرابلس عام 1139م. على عهد البطريرك عريغوريوس الحالاتي ووقعوا وثيقة بطاعة البابا والقبول بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، وهكذا نجد أن الموارنة كانوا على خلاف فيما بينهم بشأن الدخول في طاعة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وأورد غليوم الصوري المتوفي عام 1185م. أن قوما من مقاطعة فينيقيا من البلاد القريبة من جبيل ذهبوا إلى بطريرك انطاكية اللاتيني عام 1180م. وتبنوا الايمان الصحيح، واستعدوا لقبول تقاليد وتعاليم الكنيسة الرومانية، فحصل نزاع بين موارنة الساحل وموارنة الجبال حول الانضمام إلى الكنيسة الرومانية، وحاول البابا اينوسان الثالث حسم الأمر، فوجه دعوة خطية للبطريرك الماروني أرميا العمشيتي لحضور المجمع اللاتراني، فغادر البطريرك لبنان في أواخر عام 1215م. وحضر قسما من المجمع، ثم عاد إلى لبنان ومعه إلى لبنان ومعه رسالة غفران من البابا إلى الكنيسة المارونية.

وبعد موت البطريرك العمشيتي عاد الانشقاق إلى الكنيسة المارونية في عهد البطريرك دانيال الشاماتي (1230 – 1239م.) فثار موارنة الجبة ولحفد على البطريرك، فنزح من سيدة ميفوق إلى دير مار قبريانوس في كفيفان، ثم إلى دير مار يوحنا كفرحي، فإلى دير مار جرجس الكفر.

بلغ انشقاق الموارنة ذروته عام 1282م. عندما توفي البطريرك دانيال الحدشيتي فقام الموارنة الرافضين لطاعة روما بانتخاب لوقا البنهراني (بنهران قرية قرب جبة بشري) بطريركا عليهم، فأقام في الحدث وراح يناهض الافرنج ويقطع عليهم الدروب، فصار الافرنج في طرابلس يدعمون الموارنة الموالين لروما

لانتخاب بطريرك لهم، فانتخبوا ارميا الثاني الدملصاوي الذي سافر إلى روما للحصول على تثبيت بانتخابه من البابا، ثم عاد واستقر في حالات.

وفي عام 1283م. أغارت جماعة من التركمان على جبة بشري وقبضوا على لوقا البنهراني وقتلوه، فيما استمر الدملصاوي بطريركا، لكن الانشقاق لم ينته، بل استمر حتى خروج الافرنج من الشرق.

وبعد هذا التاريخ ضعفت العلاقة بين الموارنة والبابوية لصعوبة الاتصال بينهما، فأوكل أحبار روما الموارنة إلى الرهبان الفرنسيسكان، الذين أسس رهبانيتهم في القرن الثالث عشر القديس فرنسيس الاسيزي، فأتوا الشرق كمبشرين واتصلوا ببطاركة الموارنة وبدأوا يقدمون لهم المساعدة والارشاد.

وضع المسيحيين في لبنان على أيام المماليك:

ظل الموارنة يحافظون على بلادهم ويدافعون عنها ضد الغزوات الإسلامية قرونا عديدة، ففي العامين 1264م. و1266م. حاول الملك الظاهر احتلال مدينة طرابلس فكان الموارنة ينحدرون من أعالي الجبال ويفتكون بجيوش الظاهر ويستتونهم.

وبسبب مساعدة الموارنة للصليبيين هاجمت جيوش المماليك الجبال اللبنانية الشمالية سنة 1283م. وحاصرت اهدن أربعين يوما، ثم دخلتها ونهبتها، وقتلت وسبت أهلها، ودمرت منازلها، ثم أحرقت قرى بقوفا وحصرون وكفرصارون والحدث.

وفي عام 1291م. حاول المماليك اجتياح مناطق كسروان بقيادة بيدرا وبمساعدة أمراء الغرب الارسلانيين، فطوقوا الجبل من الساحل والداخل، لكن الحملة أخفقت في السيطرة على كسروان واستمر أهالي كسروان بمقاومة الدولة المملوكية.

وفي عام 1300م. قام جمال الدين آقوش الأقرم المملوكي بحملة على كسروان واستولى عليها وفرض 100 ألف درهم ضريبة على أهلها.

أما في عام 1304م. فقد قدم ابن تميمة إلى كسروان لمفاوضة الشيعة من سكانه في الرجوع إلى الطاعة، فلم يفلح وأفتى بقتالهم، فسار إليهم المماليك عام 1305م. بقيادة الأقرم وانتصروا في معارك صوفر ونابيه ودخلوا كسروان وخربوا الكثير من الأديرة والكنائس وبخاصة دير مار شليطا مقبس قرب غوسطا.

انشقاق الموارنة من جديد:

في سنة 1357م. كان يوحنا بطريركا على الموارنة وقد اتبع مذهب اليعاقبة كما ورد عند ابن القلاعي، فأحدث انشقاقا في الطائفة المارونية بين موارنة جبيل والبترون من جهة، وموارنة جبة بشري الذين تبعوا البطريرك في هرطقته، واشتدت الأزمة بين الفريقين فاقتتلوا، ثم قام موارنة الساحل وخلعوا البطريرك يوحنا، وانتخبوا البطريرك جبرائيل من حجولا.

اغتنم المماليك أيضا فرصة الانشقاق بين الموارنة وقاموا بغارة عليهم حتى مقر البطريرك ألقوا القبض عليه بتسهيل من الموارنة أتباع المذهب اليعقوبي ورموه بتهمة الزنا، وساقوه إلى طرابلس، حيث استشهد حرقا، كما ألقوا القبض على أسقف اهدن وأودعوه السجن في دمشق.

وذكر القلقشندى المتوفي سنة 1418م. أن جبة المنيطرة وجبة بشري وجبة أنفه أصبحت تابعة لنيابة طرابلس الشام، وهكذا بسط المماليك سلطتهم العسكرية والسياسية على مواطن المسيحيين في شمالي لبنان بسبب انقساماتهم المذهبية وتفرقهم طوائف وبدع.

وفي سنة 1440م. ترك البطريرك يوحنا الجاجي دير سيدة ميفوق وسار إلى دير سيدة قنوبين هربا من اضطهاد المسلمين ومشايقاتهم.

بعد حملات المماليك على كسروان، استقدموا بعض الأمراء التركمان من العسافيين السنة واقطعوهم بعض مناطق كسروان، لكن الخلافات بين العسافيين والتنوخيين الدروز في جبال بيروت والشوف، مكّنت الموارنة من الانتشار مجددا نحو الجنوب، فاستولوا على كسروان، وسكنوا مناطق متعددة من جبال بيروت والشوف، وبرز منهم مشايخ واقطاعيين.

التعديات على الأماكن المقدسة في لبنان:

لم تسلم الأديرة والكنائس في لبنان من تعديات المسلمين، فخربوا بعضها، ونهبوا مقتنيات البعض الآخر، كما حولوا قسما منها إلى جوامع لهم.

ففي القرن الثالث عشر حولوا كاتدرائية القديس يوحنا في بيروت، المبنية على الطراز البيزنطي، إلى جامع سموه الجامع الكبير أو الجامع العمري. كما أقاموا جامع الخضر شمالي بيروت على أنقاض كنيسة مار جرجس.

وفي طرابلس حوّل الأشرف خليل عام 1294م. كنيسة السيدة العذراء إلى جامع سماه الجامع الكبير أيضا. وحوّل الأمير سيف الدين الناصري حاكم طرابلس، عام 1336م. كنيسة الكرمل، إلى جامع سماه جامع طيلان. وتحولت كنيسة القديس انطوان البادواني شمالي طرابلس إلى تكية للدراويش.

وكما في بيروت وطرابلس كذلك في صيدا، فقد حول المسلمون كنيسة القديس يوحنا العائدة للقرن الثالث عشر إلى جامع دعوه الجامع الكبير.

وفي القرون الحديثة تحولت كنيسة المخلص في بيروت إلى جامع أطلق عليه اسم جامع السرايا، ويقع بالقرب من ساحة الشهداء.

لبنان في عهد الامارتين المعنية والشهابية:

على الرغم من الاستقلال الجزئي الذي كان يتمتع به أمير الجبل اللبناني، فقد ظلت المدن الساحلية في أيدي الولاة العثمانيين وظل هؤلاء الولاة يتدخلون في سياسة الجبل تدخلا مباشرا فيثيرون الفتن ويحرضون رجال الاقطاع بعضهم على بعض، ويشجعون الصراع العائلي والعصبية القبلية.

وكانت الامبراطورية العثمانية تؤيد سياسة ولاتها، حرصا على توازن القوى بين الأمراء، ومنعا لأية حركة استقلالية، وفي كثير من الأحيان كان تمادي الولاة بتدخلاتهم يضطر الأمير الحاكم إلى اعتزال الحكم، تجنبا من الظروف السياسية المعقدة والمتشابكة التي سادت لبنان في تلك الحقبة.

وكان الأمراء في لبنان يفرضون الضرائب الباهظة على أفرادالشعب تأمينا للمبالغ التي كانوا يتعهدون بدفعها للولاة العثمانيين مقابل حصولهم على الإمارة، فيسود التوتر والعصيان والعاميات.

1- صراع الأمراء والأعيان:

كان الأمراء والأعيان في لبنان في صراع دائم مع بعضهم للاستئثار بالحكم والسلطة، ففي عام 1797م. اتفق الأمير بشير مع آل جنبلاط وآل عماد للقضاء على آل أبي نكد، فقتلوا الأشقاء الخمسة بشير وواكد وسيد أحمد وقاسم ومراد، وهدموا منازلهم في دير القمر وصادروا أملاكهم.

2- القوى الإقليمية تتجاذب أمراء لبنان:

في أثناء الحملة الفرنسية على مصر وحصار عكا، تلقى الأمير بشير الثاني في 20 آذار 1799م. رسالة من نابوليون بونابرت قائد الحملة، يطلب اليه المساعدة، واعدا إياه بمنحه الاستقلال، وفي الوقت نفسه تلقى الأمير بشير من الجزار وإلى عكا رسالة أخرى، يطلب إليه المساعدة ايضا، فتخوف الأمير بشير من مساعدة الجزار خشية أن يترك الإمارة فينتهز خصومه الفرصة ويغتصبون الحكم منه، كما آثر ترك الجزار وحده في مواجهة الفرنسيين، انتقاما منه وأملا بانكساره والتخلص من حكمه، كذلك تجنب الأمير بشير الرد على رسالة بونابرت، وغض النظر عن المؤن التي كان يرسلها المسيحيون إلى الجيش الفرنسي.

وبعد فشل الحملة الفرنسية أمام أسوار عكا شعر الأمير بشير بالحرج لموقفه المتردد والذي أدى به إلى خلعه عن الإمارة.

في هذه الأثناء حضر إلى بيروت الأميرال سيدني سميث قائد الأسطول الإنكليزي في البحر المتوسط، وطلب إلى الأمير بشير مرافقته إلى مصر لمقابلة الصدر الأعظم والتوسط لديه لإعادة الأمير بشير إلى الإمارة، فأعاده سنة 1800م. إلى الحكم. وهكذا أصبح مركز الإمارة في لبنان عرضة للتجاذب الدولي والإقليمي نتيجة لتردد الأمير في اتخاذ المواقف الواضحة، وفي عدم معرفة المصلحة اللبنانية، ولسوء اختيار الحليف المناسب.

ولدى عودة الأمير بشير إلى لبنان أدرك استحالة حكم لبنان بمساعدة القوى الخارجية، وأن لا مفر من الاتفاق مع الأمراء اللبنانيين، فاتفق مع أولاد الأمير يوسف ومدبرهم جرجس باز على توزع الحكم في البلاد، فيحكم أولاد الأمير يوسف شمالي لبنان، من نهر ابراهيم إلى طرابلس، ويكون مركزهم جبيل، ويحكم الأمير بشير من نهر ابراهيم حتى البقاع وصيدا، ويكون مركزه دير القمر.

وبالغ الأمير بشير في فرض الضرائب، فتمرّد عليه اللبنانيون وثار عليه آل عماد وتلحوق وعبد الملك، لكنه أخمد ثورتهم بمساعدة الجنبلاطيين، فحطم معظم الزعامات الدرزية مما أكسبه تأييد المسيحيين عموما والموارنة خصوصا فزادت نقمة الدروز عليهم.

3- تحول ميزان القوى الداخلية:

أصاب ميزان القوى الداخلية في لبنان تحول جذري ابتداء من القرن الثامن عشر، بسبب سيطرة الموارنة على سياسة لبنان بدل الدروز، بخاصة حين تنصّر أبناء الأمير ملحم الشهابي في سنة 1756م. وتولى الإمارة من قبل الأمير يوسف الشهابي سنة 1770م. والذي كان قد تنصّر أيضا، وذلك لدى شعور هؤلاء الأمراء بأن المسيحيين أصبحوا قوة لا يستهان بها تتفوق على الدروز عددا وتنظيما، يؤازرهم في ذلك عدد من الارساليات الأجنبية كالفرنسيسكان واللعازاريين واليسوعيين والكرمليين، والذين كانت لهم صلاتهم المتينة مع الدول الأوروبية.

4- عامية انطلياس الأولى وعامية لحفد:

عندما بالغ الأمير بشير بفرض الضرائب على اللبنانيين قامت سنة 1820م. حركة عصيان عنيفة انطلقت من انطلياس وعمت كسروان والمتن حيث اجتمع النصارى بإيعاز من المطران يوسف اسطفان، وأقسموا أنهم لا يدفعون إلى الأمير بشير سوى مال واحد وجزية واحدة، فاضطر الأمير بشير إلى الاستقالة. لكنه عاد إلى الحكم بمساعدة عبدالله باشا وإلى صيدا، وجرّد حملة على العصاة وأخضعهم، كما أخضع عامية لحفد أيضا.

5- الاحتلال المصري:

انطلقت الحملة المصرية على لبنان وسوريا في خريف سنة 1830م. بقيادة ابراهيم باشا، وساعده في ذلك الأمير بشير، حيث احتلت هذه القوات صور وصيدا وبيروت وطرابلس والبقاع وبعض أقسام جبل لبنان.

ثم فرض الحكم المصري على اللبنانيين ضريبة جديدة سماها "مال إعانة" أو "فردة" شملت جميع اللبنانيين الذكور ما عدا العاجزين والقاصرين وذوي العاهات، فاعتبر الموارنة في لبنان بخاصة، والنصارى بعامة، أن ابراهيم باشا قد حررهم من الظلم العثماني لأنه رفع القيود التي كانت مفروضة عليهم، وساواهم بالمسلمين، فأيدوه ووقفوا إلى جانبه.

وفي سنة 1833م. جنّد الحكم المصري ألف ومئتي جندي من الدروز بالرغم من رفض الدروز لهذا التجنيد ومحاولتهم الثورة على الحكم المصري، ثم سعى ابراهيم باشا إلى تجنيد ألفي مقاتل مسيحي سنة 1838م. ووجههم لقتال دروز حاصبيا، فكان لهذا التجنيد ومحاربة الشبان المسيحيين للدروز أثر في تعميق الهوة بين النصارى والدروز وإشعال الفتن بينهما.

6- عامية انطلياس الثانية:

اتفق اللبنانيون على العصيان عندما أمر ابراهيم باشا الأمير بشير باسترجاع الأسلحة التي وزعها على اللبنانيين سنة 1838م. فامتنع هؤلاء عن تسليم أسلحتهم، واعتبروا ذلك إنذارا بفرض التجنيد الإجباري عليهم، واجتمعوا في انطلياس في 8 حزيران سنة 1840م. واتفقوا على:

1- إننا لا ندفع إلا مالا واحدا فقط.
2- أن يرفع الأمير بطرس كرامه من ديوانه.
3- أن يضع في ديوانه من الطوائف من كل طائفة اثنين.
4- أن يرفع السخرة وحفر المعادن عنهم.
5- أن يبقي لهم السلاح.

لكن الأمير بشير ألقى القبض على الثوار بمساعدة الجيش المصري مما أثار نقمة المسيحيين والدروز عليه.

7- حوادث 1841م.:

إن الحالة التي كان يعيش فيها النصارى برخاء وبحبوحة، بالإضافة إلى تملكهم الأراضي التي كانت فيما مضى للدروز، أثارت نقمة في نفوس الدروز، كما أن تجنيد المسيحيين ضد دروز حاصبيا سنة 1838م. عجلت في وقوع الحوادث الطائفية، فانقض الدروز على المسيحيين بغتة، وبدأوا القتل والسلب والحرق في القرى المسيحية وبخاصة في مناطق الشوف وجزين والمتن والغرب وزحلة.

وتدخلت الإمبراطورية العثمانية فصادرت أسلحة المسيحيين، وغضّت الطرف عن أسلحة الدروز وأعمالهم، فزادت بعملها هذا إصرار المسيحيين على الدفاع عن أنفسهم وأراضيهم.

8- نظام القائمقاميتين:

لم تستطع الإمبراطورية العثمانية ضمّ لبنان نهائيا إليها، لكنها قررت بمساعدة الدول الأوروبية تنفيذ اقتراح مترنيخ مستشار النمسا، القاضي تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين درزية ومسيحية.

ساهم هذا النظام في تفريق اللبنانيين إلى طوائف، كما ساهم بإدخال التنظيم الطائفي إلى الوظائف العامة.

لم يؤد النظام إلا إلى تجدد القتال بين الدروز والنصارى، ففي نيسان 1845م. عادت الاعتداءات الدرزية والاستفزازات تظهر من جديد، وأخذ الدروز يخزنون الأسلحة والذخيرة، كما أخذوا يغيرون على القرى المسيحية في الشوف وجزين والبقاع والمتن، فأرسلت الدولة العثمانية وزير خارجيتها شكيب أفندي لتهدئة الوضع، فاصطحب معه 4000 جندي تركي، وألقى القبض على بعض زعماء الدروز، ودفع تعويضات للمنكوبين من النصارى، وطلب من قناصل الدول الأجنبية عدم التدخل في شؤون لبنان الداخلية.

وكان من شأن ترتيبات شكيب أفندي أن تحل السلام في البلاد لو طبقت على الجميع بعدل ومساواة، لكن هذه الترتيبات ظلت بدون تنفيذ، ولم تتمكن من إعادة الأمن والنظام إلى لبنان، إلا إلى حين، إذ اندلعت ثورات وتجددت فتن في معظم أنحاء لبنان ابتداء من 1858م. وحتى 1860م.

9- نظام المتصرفية:

بعد هذه الحوادث المؤسفة التي أطاحت بالإمارة اللبنانية، اجتمعت الدول الأوروبية وقررت وضع نظام جديد للبنان عرف باسم نظام المتصرفية، جعل معظم مناطق لبنان تحت حكم متصرف أجنبي مسيحي، تعينه الدولة العثمانية بموافقة الدول الأوروبية. وقد استمر هذا النظام حتى نهاية الدولة العثمانية في أواخر الحرب العالمية الأولى، فأعلن الانتداب الفرنسي على لبنان كما أعلنت دولة لبنان الكبير 1920.

تفسير التاريخ ودراسته:

إن الصراع الايديولوجي هو في أساس تفسير الوقائع التاريخية في لبنان، لذلك فللحدث الواحد عدة تفاسير من قبل المؤرخين، كل حسب ميوله وايديولوجيته.

فالصراع حول هوية المردة يعود إلى تمسك المسيحيين بانتسابهم إلى لبنان فيما يحاول المسلمون جعل المسيحيين من أصل عربي.

والصراع حول سكان كسروان في أثناء حملات المماليك، أوائل القرن الرابع عشر، هو صراع بين الموارنة والشيعة، ليؤكد كل واحد منهم وجوده في كسروان في تلك الأثناء، وبالتالي كي يجعل طائفته في أساس الوجود اللبناني ومحوره في الصراع الحديث حول هوية لبنان الطائفية.

يقول أبو شقرا في كتابه "الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية" ص33، بضرورة إرجاع القديم إلى قدمه، على اعتبار أن جبل لبنان كان تحت حكم الإقطاع الدرزي، وما ادعاءات الدروز اليوم إلا انطلاقا من هذا المبدأ، وعلى اعتبار الشوف هو جبل الدروز، والأمير الحاكم كان يدعى أمير الدروز.

أما المسيحيون فإنهم يتمسكون بالأرض اللبنانية لأنهم أسبق في وجودهم من الدروز (القرن الحادي عشر) ومن الاسلام (القرن السابع)، وبالتالي فإن مقولة إرجاع القديم إلى قدمه تعني عودة الأرض والسلطة إليهم وليس لغيرهم من الطوائف الإسلامية.

وقد أشار جوبلان Jouplain في كتابه La Question du Liban إن الدروز هم دخلاء على الجبل اللبناني، كما أشار المطران بطرس البستاني في إحدى رسائله إلى هذه القضية أيضا.

ولقد عالج المؤرخون في التاريخ الحديث قضية الصراع الطائفي والصراع الطبقي، ففي حين ركز البعض على الصراع الطائفي وذلك بهدف القول أن من المستحيل إقامة وطن واحد لجميع الطوائف اللبنانية، ركز الآخرون على الصراع الطبقي وذلك للقول بأن لا خلاف على الوطن في وجوده بل على النظام السائد فيه.

وأجمع المؤرخون اللبنانيون أن المسيحيين كانوا الأكثرية في الحوادث الطائفية في القرن التاسع عشر وبالتالي فإن البعض منهم أعاد خسارة المسيحيين في تلك الحوادث على اعتبارها صراعا طبقيا اشترك فيه الفلاحون من الدروز والمسيحيين ضد الاقطاع عامة. وما ظهور الصراع الطائفي سوى مظهر جانبي غير هام.

أظهرت حوادث القرن التاسع عشر أن لبنان هو مجموعة طوائف متجاورة أملت على اللبنانيين إيجاد الميثاق الوطني القائم على الطائفية ليتمكنوا من التعايش مع بعضهم لفترة من الزمن تنتهي بتطوير الميثاق أو بزواله.

ولكي نفهم حقيقة التاريخ علينا أن ندرس عناصر الحدث وموقع المؤرخ في تركيبة لبنان المعاصر من حيث موقعه من الدولة والطائفة والمنطقة والطبقة الاجتماعية... الخ.

أشار بعض الباحثين إلى حوادث القرن الماضي على اعتبارها مكونة من عوامل داخلية وعوامل خارجية، فالعوامل الداخلية هي الطوائف وبخاصة الموارنة والدروز، ويتكون الموارنة من الاقطاع والكنيسة والفلاحين بينما يتكون الدروز من الاقطاع والفلاحين، وقد أضاف البعض الى الدروز اليزبكية والجنبلاطية.

فيما أشار البعض الآخر من الباحثين إلى اعتبار العوامل الداخلية مكونة فقط من الاقطاع من جهة ومن الفلاحين من جهة أخرى.

أما العوامل الخارجية فكانت الامبراطورية العثمانية وأوروبا (فرنسا وانكلترا) ومصر.

وما أشبه الأمس باليوم!!!

<u>المؤرخون المسيحيون:</u>

لقد نشر جوبلان (بولس نجيم) كتابه في أوروبا باسم مستعار مما سمح بكتابة ما يرغب دون الخوف من ضغوطات خارجية أو محلية سياسية أو طائفية.

فقد أعلن أن العام 1840 هو بداية لحقبة جديدة في تاريخ لبنان إذ بدأ لبنان يتخلص من حكم الامبراطورية العثمانية غير المباشر نحو تحديث في بناء لبنان، في حين وجد المسلمون هذا التغيير في غير مصلحتهم لأنهم يعتبرون أنفسهم أسياد البلاد ولأنهم حسب اعتقاده مدعوون من الله لحكم غيرهم من الشعوب.

فبعد الاحتلال المصري شعر الدروز بالضغط عليهم من المصريين والمسيحيين ومن الأمير بشير الشهابي المتنصّر. فكانت أحداث سنة 1840م. ضد الشهابيين وضد المسيحيين، قام الدروز متسلحين بعقدة النقص لديهم وبوحدتهم وتنظيمهم تعويضا عن عددهم القليل بالمقارنة مع غيرهم من الطوائف فانضووا تحت راية زعمائهم المشايخ أكثر من أي يوم مضى وذلك ليس للثأر فقط ولكن للبقاء أيضا.

أما الموارنة فقد حاربوا خوفا من عودة الحكم العثماني المباشر عليهم واحتفاظا بحريتهم وأرضهم وتمسكا بالحكم المسيحي لبلادهم.

أما لماذا لم يرض المسيحيون بالتنظيمات العثمانية التي نادت بالتحديث والمساواة، فلأن المسلمين ثاروا ضد هذه التنظيمات وتحرك تعصبهم الإسلامي ورفضوا المساواة مع المسيحيين.

يقول جوبلان أنه بعد سنة 1840 كان همّ العثمانيين القضاء على استقلالية لبنان ووحدته فنقلوا مركز الولاية من صيدا إلى بيروت ليسهل على الوالي أمر مراقبة الجبل اللبناني.

وعلى غرار جوبلان كذلك أرّخ الحتّوني والمطران الدبس، وثلاثتهم من مؤرخي حوادث لبنان في القرن التاسع عشر وينتمون إلى الطائفة المارونية.

أما يوسف ابراهيم يزبك فإنه يتهم الاحتلال المصري للبنان عام 1831 بأنه كان وراء الأحداث التي وقعت بين الموارنة والدروز.

ويتحدث كمال الصليبي في كتابه "تاريخ لبنان الحديث" عن حوادث 1860م. قائلا أن قناصل الدول الأوروبية بناء على اقتراح خورشيد باشا وإلى بيروت أخذوا يحثون النصارى على الاعتدال، وكان هؤلاء، من فرط خوفهم، راغبين جدا في الإصغاء إلى هذه المشورة، ولعل خورشيد باشا هو الآخر برّ بوعده، فدعا الدروز إلى التوقف عن الاعتداء، فإذا كان الأمر كذلك، فمن الأكيد أنه لم يتوفق إلى ردعهم، إذ تابع الدروز اعتداءاتهم بعد نكبة منطقة بعبدا بأشد مما سبق، منتشين بالانتصارات التي أحرزوها.

فماذا كان وراء إستئساد الدروز آنذاك وما هي الأسباب التي جعلت النصارى عاجزين عن المقاومة؟

كان النصارى أكثر عددا من الدروز، وكانوا على العموم إندادا لهم في الشجاعة والإقدام، ولم يجهل الدروز هذه الحقائق، ولعل هذا ما جعلهم يهاجمون قرى النصارى على حين بغتة، وأحيانا كثيرة بالخدعة، وكانوا يتخوفون من أن يأتي النصارى إمدادات من مناطق الشمال، غير أن النصارى، على الرغم من تفوقهم في العدد وبسالتهم كأفراد، لم يكونوا على شيء من التنظيم الحقيقي ولم يكن عندهم ثقة بزعمائهم الأنانيين، المفتقرين إلى المقدرة والكفاءة، المتخاصمين أبدا فيما بينهم، المستعدين دائما للمساومة على القضايا العامة من أجل نفعهم الخاص، ولم يكن عند النصارى أي ميل إلى الانضباط، وكان كل ذلك من حسن حظ الدروز..."

وهكذا نجد الصليبي، الارثوذكس المولد، البروتستانتي المنشأ والمعتقد، المنتمي إلى منطقة عاليه حيث ولد وتعلم، وحيث أهله وأقرباؤه، نجده يلقي سبب خسارة المسيحيين على خوفهم وتفرقهم وتخاصمهم فقط، ولعل في موقفه هذا بعض التقرب من الدروز حيث يسكن هو وأهله. ومع ذلك فإن في كتاباته شيء من العلمية والموضوعية.

المؤرخون المسلمون:

يُعتبر عادل اسماعيل من أبرز المؤرخين المسلمين الذين كتبوا في تاريخ لبنان وبخاصة كتابه الذي اناول فيه تاريخ لبنان من القرن السابع عشر حتى أيامنا هذه. فهو يقف فيه على مسافة متساوية بين مؤرخي الموارنة ومؤرخي الدروز.

فهو من جهة يحمل مسؤولية الأحداث للحكم العثماني وللقناصل الأجانب الذين لعبوا دور المستشارين عند الطوائف، ومن جهة أخرى يلقي المسؤولية على رجال الدين المسيحيين الذين كانوا يمارسون دورا سياسيا مدعوما بأموالهم وممتلكاتهم. ولعل هذا الموقف ينبع من كونه سنّيا من سكان بيروت الذين دانوا بالخضوع للسلطات العثمانية واستكانوا إليها لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم من رعايا السلطنة العثمانية. أما الدروز والمسيحيون، فكان سُنّة بيروت يعتبرونهم أقل مواطنية منهم، وأكثر بعدا عن الدين الإسلامي.

كما أشار عادل اسماعيل في كتاباته إلى الصراع الفرنسي الإنكليزي في الشرق لتأمين مصالحهما، ففرنسا وقفت إلى جانب المسيحيين، وانكلترا وقفت إلى جانب الدروز، وقد رأى اسماعيل في هذه المواقف مدعاة للتفرقة والاقتتال طالما لم يلق السنّة أي دعم خارجي من تلك الدولتين.

خاتمة:

وهكذا نجد أن المؤرخين اللبنانيين تطلعوا إلى الأحداث من منظار طائفي، فأخذ كل واحد منهم يبرز محاسن طائفته ومثالب الطوائف الأخرى، مقدما البراهين والوثائق التي تدعم إدعاءاته، مهملا ما يخالف نظرته الطائفية إلى ألحداث والأمور السياسية، مغلفا كل آرائه بمظاهر الموضوعية والحياد والعلم والدقة. وكان من شأن هذا التاريخ إن غذى النزاعات الطائفية وأبرز التعصب الديني، وحمل كل فريق على التطلع نحو القوى الخارجية، فاستفاد بعض هذه القوى من الروابط الطائفية والدينية مع قسم من اللبنانيين، فزودهم بالمال والسلاح ضد أبناء وطنهم، ودفعوهم دفعا للمناداة بالوحدة الإسلامية أحيانا، وبالدولة الإسلامية أحينا أخرى، جاعلين من المسيحيين هدفا لهم في تفتيت هذا الوطن واقتطاع أجزائه، ولولا قلة من المسيحيين رفضت الانصياع وقاومت وقاتلت واستشهدت، ليس في التاريخ المعاصر فحسب، بل على مرّ التاريخ، لكان لبنان قد أصبح اليوم جزءا من الدول العربية.

ملحق رقم "1"

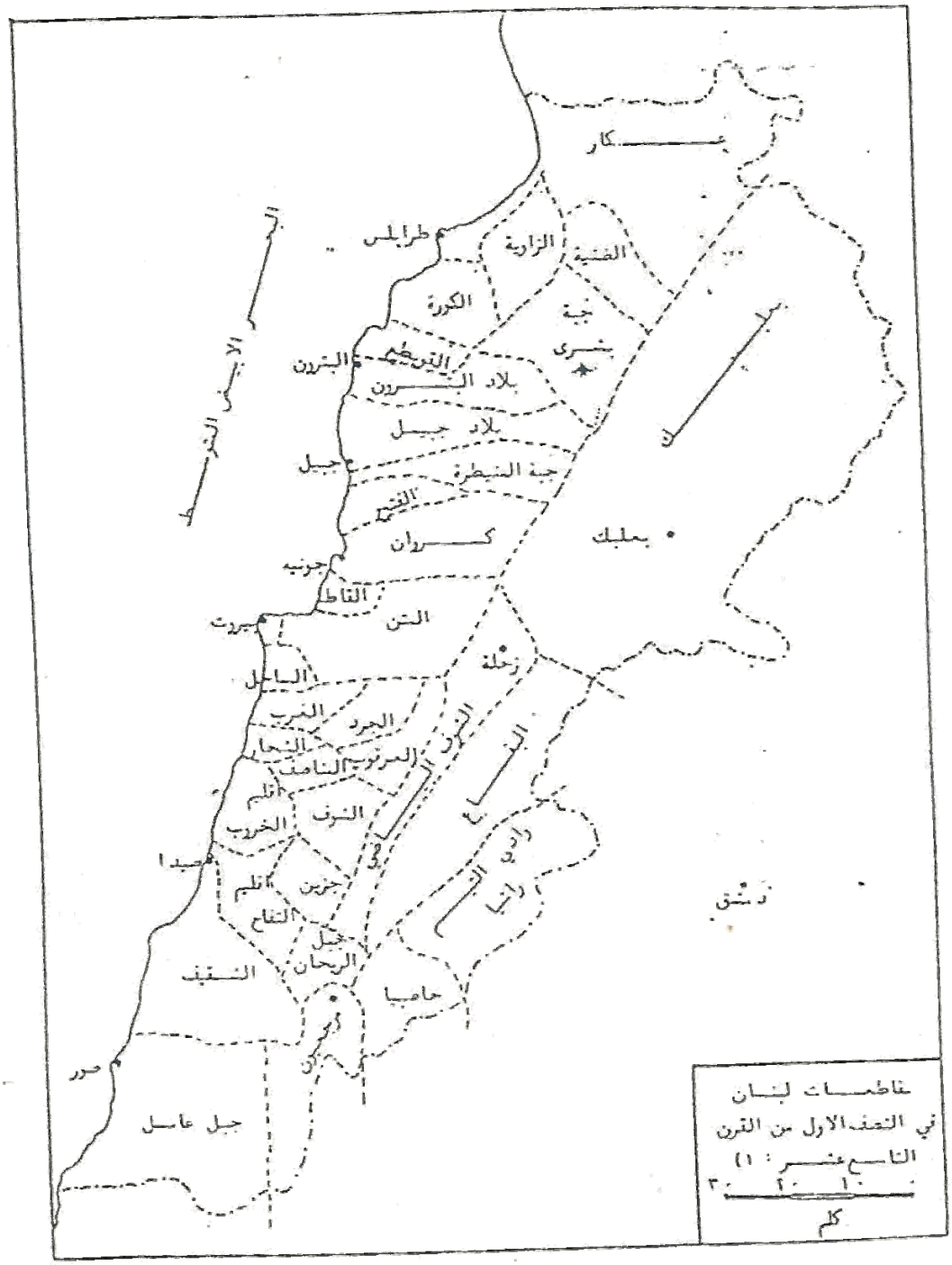

عكار
طرابلس
الزاوية
الضنية
الكورة
جبة بشري
البترون
بلاد البترون
بلاد جبيل
جبيل
جبة المنيطرة
كسروان
بعلبك
جونيه
القاطع
المتن
بيروت
زحلة
الساحل
الغرب
الجرد
الشحار
الشوف
الخروب
صيدا
جزين
التفاح
جبل الريحان
الشقيف
حاصبيا
راشيا
دمشق
صور
جبل عامل
مقاطعات لبنان
في النصف الاول من القرن
التاسع عشر (١)
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠
كلم

ملحق رقم "2"

في عدد ذكور المقاطعات الجنوبية والشمالية

مقاطعات	نصارى	دروز	اسلام ومتاولة
الزاوية	1731		60
الكورة	2500		126
القويطع	1458		139
جبّة بشري	10200		
بلاد البترون	6803		188
بلاد جبيل	5000		1000
جبة المنيطرة	2470		2196
الفتوح	2099		
كسروان	10044		19
القاطع	4181		
المتن	6699	2154	105
ساحل بيروت	3000		300
الغرب الأسفل	1451	1081	
الغرب الأعلى	1563	771	100
الشحار	1631	990	
الجرد	2016	891	
المناصف	3894	1138	10
العرقوب	1305	1153	
الشوف	1325	3517	
إقليم جزين	3271	97	
الشوف البياضي	11473		1000
إقليم التفاح	1784	31	
إقليم الخرّوب	1502	200	815
جبل الريحان	327		686
المجموع	**87727**	**12023**	**6744**

في اليوم الخامس والأربعون، نودي عليه هو ورفيقين غيره، حيث تسلموا أغراضهم الشخصية وتليت عليهم موعظة في المواطنية، والأخلاق، وطلب من دورية للمكافحة بأن تقلهم إلى مستديرة الصالومي. كان الوقت ليلا، وكل إطلاق سراح لا يتم إلا تحت جنح الظلام، مثله مثل الاعتقال، تصرف خاطفين لا رجال قانون.

أصعدوا إلى الآلية ومددوهم في أرضها ووطئوا على رؤوسهم لكي لا تراهم السيارات السائرة وراء الآلية، حتى وصلوا إلى مستديرة الصالومي. هناك تم رميهم من الآلية عند طرف الطريق العام حيث لا أنوار كهربائية ورحلوا بسرعة!

أول ما خطر على باله عندما فتح عينيه لأول مرة منذ خمسة وأربعون يوما... كلمات فيروز عندما غنّت... طلعنا على الضو طلعنا على الريح... استقلّ ورفاقه سيارة أجرة لم يقبل سائقها تناول أجرته بعدما لاحظ ما حصل وبدأت رحلة العودة إلى المنزل... إلى بداية أخرى.

الخاتمة

آن الآوان بالنسبة لنا نحن اللبنانيون، مسيحيين ومسلمين أن نتعلم من كل العبر والتجارب التي حفل بها تاريخنا المشترك:

- بأن قبول الآخر كما هو والإقرار بخصوصيته هما قاعدة أساسية لكل حوار ومسعى في سبيل وطن أفضل.
- إن أية فئة تقبل بالظلم يقع على فئة أخرى تكون قد أقرّت ومهّدت لوقوعه عليها، إن لم يكن الآن، فغدا.
- إن الحرية، هي جوهر الخصوصية اللبنانية تميّز هذا الوطن عن محيطه، أسست لها كل فئاته وضحّت في سبيلها لهذا هي مسؤولية الجميع.
- إن الوقوف دوما بجانب الشريك في هذا الوطن هو أولى من الوقوف مع القريب في أي وطن آخر.
- إن التاريخ لا يُصنع بدون محبة أو حقد. فلماذا نصنع دائما تاريخنا بالحقد؟
- إن كسب العقول والمشاعر لا يأتي عن طريق السلاح والعنف، أسلوب حوار بيننا، ولكن عن طريق المحبة وعظمة النفس والشفافية.
- إن قول الحقيقة ومهما كانت نتائجها، هي أوفر علينا من التكاذب ودفع الثمن الباهظ كل بضعة عقود.
- إن مستقبلنا واحد، أرضنا واحدة، وهويتنا واحدة: **لبنانيون**